المكتبات ودورها التّعليمي في عهد الدّايات –تلمسان ومعسكر أنموذجا–

LIBRARIES AND THEIR EDUCATIONAL ROLE IN THE ERA OF THE DEYET –TLEMCEN AND MASCARA SAMLE–

مبيوع أحمد[1]*،مقاديم عبد الحميد[2]

[1] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)،ahmedmebioue@gmail.com

[2]جامعة وهران 1 أحمد بن بلة(الجزائر)،mekadimabdo@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/02/01 تاريخ القبول: 2022/09/29 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

عرفت العديد من حواضر الجزائر العثمانيّة على غرار حواضر العالم الإسلامي ازدهارا علميًا، التي ساهمت في الترقية الثقافية والحضاريّة تمثلت في مراكز علميّة حيث لعبت دورا بارزا وهاما في تنشيط الحياة الفكريّة والثقافيّة. ومن بين حواضر الجزائر خلال الحكم العثماني اخترنا تلمسان ومعسكر اللّتان تعتبران من حواضر الجزائر العثمانيّة خصوصا في عهد الدّايات (1671–1830م)، وهذا بفضل ما وصلت إليه من ازدهار علميّ وتطور حضاريّ.

لقد اكتسب مجتمع تلمسان ومعسكر ثقافة واسعة بفضل تشييد المؤسّسات التّعليميّة العلميّة من مساجد وزوايا ومدارس، وظهرت المكتبات بنوعيها العامّة والخاصّة، فأقبل عليها الطلاب والعلماء ينهلون ممّا تزخر به من نفائس الكتب والمخطوطات عبر نظمها التّعليميّة، وقد شملت المكتبات على مختلف صنوف العلوم والفنون، الدّينيّة (الشّرعيّة)، الإنسانيّة والاجتماعيّة والأدبيّة اللغويّة، والعقليّة.

كلمات مفتاحيّة: الجزائر العثمانيّة، الدّايات، المكتبات، المؤسّسات التّعليميّة.

Abstract: It has known many of Ottoman Algeria, similar to the civilizations of the Islamic world, which contributed to the cultural and civilizational upgrade, Represented in scientific centers, which played a prominent and important role in revitalizing intellectual and cultural life.

Among the civilizations of Algeria during the Ottoman rule,we chose the two civilizations of Tlemcen and Mascara,which are considered to be among the most important civilizations of Ottoman Algeria,especially during the reign of the Deyet of 1671-1830 AD,thanks to the scientific prosperity and civilized development they have reached.

The societies of both Tlemcen and Mascara civilizations has acquired a wide culture thanks to the construction of educational institutions such as mosques,zawiyas and schools. Libraries appeared, both public and private,sothe students and scholars came to them and took advantageof the precious books and manuscripts she had through its educational systems. The libraries included various types of sciences such as: religious (legitimate),humanitarian,social,literary,linguistic and mental sciences.

Libraries are considered as educationaland cultural institutions,as they play a leading and fascinating role in activating the movement of enlightened thought and blazing science,and nourishing the scientific movement and pushing it forward

Keywords: Ottoman Algeria; the Deyet; the libraries; the educations institutions.

---

*المؤلف المرسل: مبيوع أحمد

1. مقدمة:

إنّ المتتبع لتاريخ الجزائر الثّقافيّ خلال الحكم العثمانيّ، المتّعلق بمؤسّساته التّعليميّة التربويّة، من مساجد وزوايا ومدارس، يجد أمامه مكانة استثنائية للمكتبات وخزائن الكتب في نفوس المجتمع الجزائريّ ومدى اعتزازهم بتراثهم الثّقافيّ والفكريّ ممّا زادهم إصرارا وتمسّكا بالمحافظة عليه بكلّ الوسائل.

تعتبر المكتبات وبما تزخر به من كتب ومخطوطات الرّكيزة الأساسيّة واللّبنة الّتي تبنى عليها الحياة التّعليميّة العلميّة، والفكريّة لكلّ أمّة وهي الّتي تساهم في التّقدم الحضاريّ والثّقافيّ للأمم.

وكان اقتصارنا على تلمسان ومعسكر لأنّهما ارتبطتا بالإرث الحضاريّ والثّقافيّ للجزائر خلال العهد العثمانيّ، حيث تعدّ تلمسان ومعسكر في فترة الدّايات (1671–1830م) من أهمّ مدن بايلك الغرب وللجزائر ككل بل حتّى العالم الإسلاميّ، بفضل ما وصلت إليه من ازدهار علميّ وحضاريّ تعدّ السّند الأول للمؤسّسات التّعليميّة من مساجد وزوايا ومدارس، والمنهل الوحيد لطلبة العلم

(من أجل التّحصيل العلميّ) والعلماء والمدرّسين، فهي التّراث القيّم الّذي يمثّل ماضيها وحاضرها ومستقبلها، في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ.

ولدراسة موضوعنا هذا اعتمدنا على المنهج التّاريخيّ من خلال استرداد أحداث ماضي المكتبات، وفحصها تبعا لما تركته من آثار فكريّة، كما اتبعنا المنهج التّحليليّ من خلال دراسة محتويات المكتبات.

تناولنا في موضوعنا هذا الأهداف الآتية: أن المكتبات تعدّمن المؤسّسات التّعليميّة التّثقيفيّة، حيث تقوم بدور ريادي بارز في تنشيط حركة الفكر النيّر، والعلم المتوقّد، وتغذيّة الحركة العلميّة ودفعها إلى الأمام.

ومن خلال دراستنا لموضوع المكتبات في تلمسان ومعسكر توصلنا إلى إشكاليات عديدة شغلت اهتمامنا أهمّها: ما هي أهم المكتبات في تلمسان ومعسكر؟ما دور المكتبات في تطور الحركة التّعليميّة؟وهل استطاعت أن تؤدي دورها المنوط بها؟وكيف كان تنظيمها، وما هي أهمّ مضامينها؟ وللإجابة على هذه التساؤلات تمّ التطرق إلى ما يلي:

- تعريف المكتبات وتطورها في الجزائر.
- نظام المكتبات وطرق تزويدها بالكتب.
- الدّور الثّقافيّ والحضاريّ للمكتبات.
- أبرز المكتبات في تلمسان ومعسكر.
- محتويات المكتبات ومصيرها.
- خاتمة تتضمّن نتائج البحث المتوصّل إليها.

2. تعريف المكتبات وظهورها في الجزائر:

1.2- تعريف المكتبة:

المكتبة هي تلك المؤسّسة الثّقافيّة التّربويّة الاجتماعية الّتي شيّدت لتجمع وتحفظ مجموعات معيّنة من مصادر المعرفة، بحيث تنظم وترتب وفق طرق معيّنة وتحت إشراف فرد أو مجموعة أفراد متدربين

على القيام بأعمال المكتبة خدمة روادها، وتعمل المكتبة على خدمة الإنسان من خلال قيامها بجمع ثروته الفكريّة وتنظيمها ونقلها للأجيال القادمة[1]، وقد استخدم العرب كلمة دار وكلمة خزانة وكلمة بيت للدلالة على المكتبة[2].

2. 2– ظهور المكتبات وتطورها في الجزائر:

حرص الإنسان منذ القدم على الاحتفاظ بما دونه من أخبار وأعمال وعلوم، ورغبة في توثيقه والمحافظة عليه، حيث أطلق على المكان الّذي يحتفظ به بتلك المخطوطات اسم المكتبة أو خزانة الكتب، والّتي يرجع إلى عهود سحيقة[3]، بحيث اعتبرت في الحضارة العربيّة الإسلاميّة من أهم المؤسّسات الثّقافيّة الّتي عني بها المسلمون، وكان لها دور كبير في الحياة الثّقافيّة والعلميّة باعتبارها جزء من العمليّة التّعليميّة، وقد انتشرت في جميع المؤسّسات التّعليميّة والثّقافيّة على اختلاف أنواعها بالإضافة إلى منازل العلماء[4]، وتعتبر المكتبات من أهم الفضاءات المعرفيّة فهي لا تقل أهميّة عن المساجد والزوايا والمدارس، بل هي جزء منها لارتباط هذه المؤسّسات بها، باعتبارها خزانات الكتب ومنبع العلم بها، وقد أسهمت المكتبات خلال العهد العثماني في إثراء الحياة العلميّة بالجزائر عموما وبمدن بايلك الغرب الجزائري خصوصا، فقد اعتبرت إيّالة الجزائر في مقدمة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات[5]، بل وجد عدد كبير من المكتبات قبل مجيء العثمانيين فكانت حاضرة تلمسان عاصمة علميّة مزدهرة بلغت صناعة الكتب درجة عاليّة، وكذلك بجاية وقسنطينة ووهران، فقد روى التمغروطي أن مدينة الجزائر في أواخر القرن 16م كانت كثيرة الكتب وأنّه لا يضاهيها بلد في ذلك من البلدان الإفريقيّة، ولاسيما كتب الأندلسيين عندما هاجروا إلى الجزائر وحاملين الكتب معهم[6].

---

[1]– مصطفى عليّان ربحي، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، دار الصفا للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1999م، ص113.

[2]– مصطفى عليّان ربحي وأمين النّحداوي، مقدمة في علم المكتبات والمعلومات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1999م، ص9.

[3]– بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن (4هـ/10م)،دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، ط1، ص407.

[4]– عبد الغني عبد الله يسري، من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية:المكتبات الخاصة، دورية كان التاريخية، مجلة إلكترونية، العدد16، 2012م، ص52.وراغب السرجاني، ماذا قدم المسلمون للعالم إسهامات المسلمون في الحضارة الإسلامية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2009م، ط2، ص223.

[5]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500–1830م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ط1، ج1، ص286.

[6]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص297.

3. طرق جمع الكتب وتزويدها للمكتبات:

يعتبر الكتاب هو المادة الأساسيّة المغذيّة للمكتبات، من أجل ذلك تنوعت طرق جلبها واقتنائها بالكتب الثّمينة والنّفيسة المتعددة الاختصاصات ومختلف المجالات هي:

3. 1- شراء الكتب:

يعدّ المصدر الرئيسي لتزويد المكتبات بالكتب، فالعلماء حثّوا طلابهم على ضرورة اقتناء الكتب المحتاج إليها شراء إن أمكن ذلك، ولأهمية الكتاب وزيادة الإقبال عليه كان يروج له ويشترى ويقايض به، وخصّصت له أسواق خاصّة ببيع الكتب والّتي عرفت ازدهارا كبيرا[1]، قصدها الغني والفقير المحب للعلم الّذي كان يؤثر شراء الكتب على ملء المعدة واللّباس والفراش الفاخرين، كما أن شراء الكتب لم يكن دائما للاستفادة منها علميّا، وإنّما كانت بعض العائلات تقتنيها لتفاخر بها مثيلاتها، وكان أشباه العلماء يجمعونها للمباهاة والتشبه بأهل العلم[2].

3. 2- نسخ الكتب:

يعتبر نسخ الكتب أهم وسيلة لجمع الكتب، تنافس عليه الطلبة والحكام والفقهاء، فكان له دور بالغ الأهميّة في الأوساط العلميّة والأدبيّة وعاملا مساعدا على النمو الثّقافي، فساهموا في توفير الكتاب في السوق والمكتبات العامّة والخاصّة، وعملوا على تطوير فن النسخ والوراقة وازدهارها[3]، فقد كلّف شيوخ الزّوايا مريديهم وطلبتهم بنسخ الكتب، وبصفة خاصّة منهم أولئك الذين عرفوا بجودة خطّهم وحسن ضبطهم وإتقانهم، فكانت تدفع إليهم المؤلّفات ينسخون منها نسخة أو أكثر، يزوّدون بها خزائن زواياهم، واتبعوا في ذلك ضوابط النسخ بقصد الإخراج الحسن للكتاب،

كنوعيّة الورق والحبر وعدد الأسطر في كل ورقة[4]، كما اهتم أيضا الورّاقون بجمع الكتب ونسخها في دكاكين خاصّة يبيعون فيها السلع وينسخون فيها المصاحف والكتب[5].

3.3- تأليف الكتب:

---

[1]- السيد النشار، تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993م، ص161.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص294.

[3]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ج2، ص336.

[4]- عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ج2، ص377.

[5]- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004م، ص140.

ساهمت حركة تأليف الكتب والمطالعة ونسخها، ووضع الكتب في مكتبات عامّة في التّحصيل العلميّ والمعرفيّ للطلبة إذ كانت من بين الوسائل التّعليميّة الهامّة[1]، وكان التّأليف من الطّرق الهامّة لنمو المكتبات، فلم نكاد نجد عالما إلاّ وله قائمة من الكتب ومن أشهر المؤلّفين في تلك الفترة "أبي راس النّاصري"[2] وغيره[3].

4.3– الوقف[4]:

نالت المكتبات نصيبا وافرا من جهد الواقفين الذين تسابقوا في جمع الكتب في مختلف فروع المعرفة ومن ثمّ وقفوها على المكتبات العامّة، لتوضع تحت تصرف طلاب العلم والعلماء لتكون منهلا صافيا لهم[5].

3. 5– إهداء الكتب:

[1]– بشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص408.

[2]– هو الإمام الفقيه الحافظ محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد الناصر الراشدي المعسكري، ولد المؤرخ أبو راس الناصري الراشدي المعسكري يوم 08 صفر 1165هـ/أفريل 1755مبقلعة بني راشد، قرب مدينة أم عسكر –معسكر– بالغرب الجزائري كانت وفاة الشيخ أبو راس الناصري يوم 15شعبان 1238هـ/1823م، عن عمر يناهز 90سنة وصلى عليه تلميذه أحمد الدابج عند الراشدية ودفن قرب داره بأم عسكر أين يوجد ضريحه.ينظر:محمد أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (1165–1238هـ/1755–1823م)، دراسة وتحقيق محمد بوركبة، أطروحة الدكتوراه إشراف عبد المجيد بن نعمية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران، السنة الجامعية 2007–2008م، ص03.

[3]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص285.

[4]– عرفه ابن عرفة قائلا:"إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازما بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرا"، وهو:"عقد لعمل خيري ذو صبغة دينية يقوم على توفر الواقف الذي له أهلية التبرع بما يملك من ذات أو منفعة، وعلى وجود الموقوف، وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس فضلا عن توفر الموقوف عليه، وهو المستحق لصرف تلك الذات والمنفعة ولو كان مصلحة عامة كالمسجد أو المدرسة والزاوية وغيرها مع اشتراط صيغة الوقف ولو كانت بكتابة على المسجد أو مؤسسة خيرية".ينظر:أبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع، شرح حدود بن عرفة الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام بن عرفة الوافية، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993م ط1، ص539.والوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، العدد89–90، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1981م، ص85.

[5]– يحي بوعزيز،موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 2004م، ص208.وأنور محمود الزناتي، الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية ودوره في النهضة العلمية–الأندلس نموذجا–، دورية كان التاريخية، مجلة رقمية إلكترونية السنة 5، العدد16، 2012م، ص42.

يتمّ تقديمها من طرف صاحبها عن طريق التّطوع والمجان ودون مقابل كالمخطوطات النّادرة أو من تأليف صاحبها، ومن ثمّة توضع في المكتبة لخدمة روّادها، وغالبا ما كانت تحبس حفظا لها من الضّياع[1].

3. 6- الحجّ والرّحلات العلميّة:

لقد شكلت الرّحلات العلميّة لاسيما من الأندلس ومصر واسطنبول والحجاز[2]والسودان وسيلة لاقتناء الكتب من خارج البلاد[3]، ويعتبر الحجّ والبقاع المقدسة، والرّحلة في طلب العلم وراء انتشار واقتناء الكتب خاصّة من المغرب الأقصى وتونس[4].

4. نظام المكتبات:

لم يكن للمكتبات أبنية خاصّة بها خلال فترة البحث العلميّ، ويغلب الظنّ أنّها كانت جزء غير مستقل من المؤسّسات التّعليميّة كمكتبات ملحقة بالمساجد والمدارس والزّوايا، وجدت من أجل خدمتها، ورغم هذا فقد كانت منظّمة تنظيما رائعا وجيّدا، بها كل ما يوفّر الرّاحة لقرّائها من غرف خاصّة بالنّسخ والمطالعة تضمّ مختلف الأثاث والسّتائر والسّجّاد ...وغرف أخرى معدة لخزن الكتب مزوّدة بالرّفوف[5]، تبوّب فيها الكتب وترتّب حسب فنونها وتخصّصها حتّى يسهل للدّارس الحصول عليها، وقد شملت مختلف أنواع فروع العلم والمعرفة مثل:المصاحف وكتب الدّين والوعظ والفقه وعلم الكلام، واللّغة والآداب والطّب[6]، ولعلّ أبرز نظام المكتبة هو كالآتي:

4.1- خازن الكتب:

وهو المشرف الأعلى على المكتبة والمسؤول عن إدارتها وحفظها وخدمة المترددين عليها وبالخصوص الإشراف على كتبها وصيانتها وتنظيمها وترتيبها، لذا اشترط فيه أن يكون من أهل العلم واسع الاطلاع عارفا بشؤون الكتب قادرا على تحمّل المسؤولية يمتاز بالثقة والأمانة[1].

---

[1]- السيد النشار، المرجع السابق، ص173.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص285.

[3]- محمد مولاي، اللغة العربية وعلومها في بلاد السودان الغربي من (ق10هـ-12هـ/16م-18م)، المجلة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، المجلد17، العدد 2، جوان2021م، ص318.

[4]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص285.

[5]- محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام:نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1987م، ط2، ص.ص148، 149. 149.

[6]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص326.

4. 2– المناول:

وهو مساعد الخازن، يقوم بإحضار الكتب من الخزانة لطالبيها ثم إرجاعها إلى مكانها مع الحرص على ترتيبها وصيانتها وحفظها[2]، ويمنح كتابا واحدا لمطالعته أو نسخه وعند الانتهاء منه يمنح له آخر، وبالتّالي فالمحبس هو الذي يحدد نظام الإعارة[3]، الّتي غالبا ما تكون داخليّة، وفي بعض الأحيان تكون خارجيّة[4]، وعلى طالب الكتاب التّقيد بآداب وأخلاقيات التعامل مع الكتاب حفاظا عليه من التّلف أو الضّياع[5]، في حين تفتح المكتبة أبوابها طيلة أيام الأسبوع صباحا ومساء[6].

4. 3– أمين المكتبة:

يكون أمين المكتبة من العلماء، فكان بقاؤه في المكتبة شبه دائم للبحث والمطالعة، وبالتّالي كانت فرصة لروّاد العلم بالبقاء، بحيث شكّلت فترة ما بين صلاة العصر والعشاء فترة ازدحام، لأنها الفترة التي ينتهي فيها طلاب العلم من حصصهم الدّراسيّة[7].

5. أقسام المكتبات:

حرص المشرفون والمنشئون للمؤسّسات الثّقافيّة بالجزائر العثمانيّة على إنشاء المكتبات، وتزويدها بالكتب اللاّزمة لإقامة النّشاط التّعليميّ والعلميّ حيث انتشرت في جميع حواضر الجزائر العثمانيّة في الرّيف والمدن، حيث لم تخلوا المساجد أو المدارس أو القصور أو بيوت العلماء أو الزّوايا...، من وجود مكتبات غنيّة بمحتوياتها، والّتي تنوعت بين مكتبات خاصّة وعامّة، باختلاف أماكن

---

[1]– السيد النشار، المرجع السابق، ص.ص137-145.

[2]– السيد النشار، المرجع نفسه، ص.ص145-150.

[3]– يحي محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية استبطان للموروث الثقافي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط2، 1996م، ص130.وبوبة مجاني، المدارس الحفصية:نظامها ومواردها، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، العدد12، 1999م، ص160.

[4]– السيد النشار، المرجع السابق، ص201.

[5]– محمد بن إبراهيم بن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم، تحقيق عبد السلام عمر علي، دار الآثار للنشر، والتوزيع، مصر، ط1، 2005م، ص241.

[6]– يحي محمود ساعاتي، المجلة السابقة، ص161.

[7]– يحي محمود ساعاتي، المجلة نفسها، ص161.

تواجدها وأهدافها وغاياتها، واختلاف مقتنياتها من حيث الكمّ والنّوع والمستوى، واختلاف طبيعة روّادها وطبيعة التّنظيم والخدمات[1]، وهي نوعين:

5. 1- المكتبات العامّة:هي تلك المكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس والزّوايا لتكون فضاءات مفتوحة لطلبة العلم خصوصا، ثم لجميع القرّاء المسلمين عموما[2].

لقد كانت المساجد والجوامع والزّوايا والمدارس تحوي على خزائن الكتب الموقوفة على الطّلبة والعلماء، وكانت كتب هذه الخزائن تختلف من حيث القلة والكثرة حسب أهميّة الوقف الذي كانت تتغذّى منه، وحسب أهميّة الجامع وأمانة وكيل الوقف، وتبعا كذلك لعدد السّكان[3].

5. 2- المكتبات الخاصّة:ويقصد بها تلك المكتبات الفرديّة أو الشخصيّة أو العائليّة، وكان هذا النّوع من المكتبات واسع الانتشار وكثير العدد، نتيجة تنافس العلماء والأدباء في تأليف وجمع الكتب وتدوينها، وقد أدى ذلك إلى تكوين مكتبات خاصّة عزيزة على قلب صاحبها يضحّي بالغالي والنّفيس من أجلها، عامرة بأجود الكتب وأندرها في مختلف فروع العلم والمعرفة موّجهة لاستعمالاتهم الخاصّة[4].إلاّ أن هذه المكتبات وإن سميّت خاصّة، العديد من منشئيها كان يبيحها للنّاس جميعا خصوصا العلماء، وطلاّب العلم ومن يثق فيهم[5].

6. الدّور الثّقافي(التعليمي) والحضاريّ للمكتبات:

إنّ المكتبة ليست مجرد مستودع للكتب يشرف عليها صاحبه ليقيه من الضّياع أو للزّينة والتّفاخر والتّباهي وإنّما وجدت لغايات أسمى، حيث تعتبر دعامة للثّقافة ومؤسّسة اجتماعيّة وتربويّة، لها دور كبير في الحركة العلميّة، باعتبارها من المؤسّسات المكمّلة للوظيفة التّعليميّة[6]، وهي:

---

[1]- ربحي مصطفى عليان، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999م، ط1، ص.ص113-114.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص298.

[3]- بلحاج صديقي، المكتبات الجزائرية في القطاع الوهراني خلال الفترة 1830-1954م، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، رسالة ماجستير إشراف شيخ بوشيخي، السنة الجامعية 2011-2012م، ص40.

[4]- بشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص400.وعبد الغني عبد الله يسري، المجلة السابقة، ص52.

[5]- زينب رزيوي، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين 7هـ و9هـ/13م و15م، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، أطروحة الدكتوراه إشراف خالد بلعربي، السنة الجامعية 2015-2016م، ص172.

[6]- طرفة عبد العزيز العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنيين (7-8هـ)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996م، ص81. ص81.

- تعتبر وسيلة تربويّة حيّة لخدمة الأفراد وهي جزء لا يمكن الاستغناء عنه، في أي مؤسّسة تربويّة تعليميّة، بل يمكن اعتبارها الأساس الّذي ترتكز عليه جميع الاتّجاهات التربويّة والتّعليميّة التي تؤكد على نشاط الطّلاب وفعاليتهم[1]، وتعدّ عصب المؤسّسات الثّقافيّة من مدارس ومساجد والزّوايا... وشريانها الّذي يغذّيها[2].
- عملت على تحقيق أهدافها الدينيّة المتمثلة في تكوين الشّخصية الإسلاميّة، وتعليم النّاس أمور دينهم وتثقيفهم وبناء المجتمع الإسلامي الفاضل القائم على الأخلاق والتّقوى والصّلاح والعلم، وهذا أمر طبيعي لأن الإسلام يدعوا إلى العلم ويقدّر قيمة العلماء، وهنا عملت المكتبات على تحقيق هذا الجانب، بما قدّمته من مصادر معلومات في مختلف مجالات المعرفة، الّتي كانت وراء بناء الفرد وتكوينه وتشكيله وفق الشّريعة الإسلاميّة الغرّاء[3].
- تعتبر مركزا ثقافيا ممتازا يلتقي فيه العلماء والباحثين وطلبة العلم للقراءة والدّرس وطالما كانت فضاءً عقدت فيه المناظرات والمناقشات، لذلك تدخل في إطار الحديث عن معاهد التّعليم[4]، لأنّها كانت كانت وما زالت طريقة القدامى في نشر العلم وشحن أذهان العلماء والمدرّسين وطلاب العلم[5]، هذا فضلا عن اتّصالاتها العلميّة بمراكز البحوث ونظيراتها من المكتبات الأخرى[6].
- فتحت أبوابها للجميع حيث سمحت لهم الفرصة بالاطلاع على كتب وعلوم جديدة لم تكن متاحة لعدد كبير منهم،فكان لهم دورا في تثقيفهم، كما أمدّت وساعدت العلماء والأدباء بمصادر المعلومات في التأليف[7].
- يرجع لها الفضل الكبير في صيانة الكثير من تراث الإسلام الفكريّ في ربوع المغرب الإسلاميّ باحتفاظها نفائس غالية من ثروة الإسلام العلميّة[8].

---

[1]– السيد النشار، المرجع السابق، ص211.

[2]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص326.

[3]– حامد شافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ط1، ص127.

[4]– عبد الله الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن 20، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1984م، ص.ص156-159.

[5]–بشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص410.

[6]–حامد شافعي دياب، المرجع السابق، ص128.

[7]– أنور محمود الزناتي،المرجع السابق،ص42.

[8]– محمد عادل عبد العزيز،التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1987م،ص56.

- نقلت المكتبات المجتمع الإسلامي من حالة البداوة إلى حالة التّحضر (الحضاريّة)، ويتمثل دورها في النّقلة الحضاريّة في بثّ العلوم ونشر المعرفة، وإرساء دعائم النّهضة العلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والاقتصاديّة، وغيرها من دعائم نهضة المجتمع وتطوره، فضلا عن دور خزائن الكتب الحضاري كان يقتضي مؤازرة حركة البحوث العلميّة إعدادا ونشرا وتبادلا مع المكتبات والمراكز الحضاريّة الأخرى[1].
- تقدم المكتبات بأنواعها المختلفة (العامّة و الخاصّة)،حيث كانت من المؤسّسات العلميّة التّعليميّة الأساسيّة الّتي أسهمت في تغذيّة التّربية الإسلاميّة بين أبناء المجتمع الإسلامي خلال العهد العثماني، كما أنّه يرجع إليها الفضل في صيانة الكثير من تراث الإسلام الفكريّ في ربوع حواضر الجزائر العثمانيّة، بحيث تحوي بين أركانها نفائس غالية من ثروة الإسلام العلميّة[2].

تعتبر خزائن الكتب منتدى اجتماعيّا، يجتمع فيه الناس يمارسون فيه حياة اجتماعيّة على مستوى عال من الرّقي، حتّى المكتبات بحق منتدى المتأدبين والعلماء ومجمع الغائبين والقادمين ومحور المثقفين ومقصد الدّعاة والمصلحين[3].

7. أبرز المكتبات في تلمسان ومعسكر:

تعدّ المكتبات بما تزخر به من كتب ومخطوطات الرّكيزة الأساسيّة الّتي تبنى عليها الحياة العلميّة والثّقافيّة لكلّ أمّة، وبها نقيس رقيّها وتأخرها، وتراثها القيّم للشّعوب، ونبرز نماذج عنها:

7. 1- مكتبات تلمسان:

لقد أصبحت تلمسان أحد الرّكائز الأساسيّة للحركة الفكريّة الثّقافيّة في بايلك الغرب خلال الفترة العثمانيّة حيث تحولت إلى عاصمة علميّة مزدهرة بفضل مكتباتها الحافلة بالكتب النّفيسة الّتي كان يستفيد منها الطّلبة بالمطالعة وقت الفراغ[4]، فقد كانت الجزائر خلال العهد العثماني طليعة طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، وقد شهد على وفرة المكتبات فيها حتى خصوم العثمانيين كالفرنسيين، وكانت الكتب تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج، فقد كانت

[1]-حامد شافعي دياب،المرجع السابق،ص128.

[2]- محمد عادل عبد العزيز،المرجع السابق،ص56.

[3]-حامد شافعي دياب،المرجع السابق،ص128.

[4]- محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص05.

تلمسان عاصمة علميّة مزدهرة بلغت فيها صناعة الكتب تأليفا ونسخا وجمعا درجة عاليّة[1]، ومن بين المكتبات المنتشرة بتلمسان ما يأتي:

أ- المكتبة الّتي أنشأها أبو حمّو موسى الثّاني سنة 760هـ/1359م بالجامع الأعظم بتلمسان، وكانت هذه المكتبة على يمين المحراب بالمكان من الجدار القبلي، "أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السّلطان أبو حمّو بن الأمراء الرّاشدين أيّد الله أمره وأعزّ نصره ونفعه عمّا وصل ونوى وجعله من أهل التّقوى، وكان الفراغ من عملها يوم الخميس الثّالث عشر لذي القعدة عام سبعمائة وستون 760هـ[2]"، وتضمّ مختلف الكتب باختلاف العلوم والفنون[3]، بالإضافة إلى نفائس المخطوطات الّتي أودعها هذا العاهل[4]، وقد امتدت آثار هذه الخزانة (المكتبة) إلى القرن 9هـ/15م، بل ربما قد ازدادت اتّساعا مع توالي السنين وازدهار الحياة العلميّة بها[5]، وقد هدمت هذه المكتبة وفقد فيها من الكتب حوالي عام 1266هـ/1850م، حيث قامت مصلحة الآثار الفرنسية بترميمها وبذلك فقدت محتواها[6].

ب- المكتبة التي أنشأها السّلطان أبو زيّان محمد الثّاني بن أبي حمّو موسى الثّاني سنة 796هـ/ 1393م، وكانت هذه المكتبة الموجودة بالقسم الأمامي من المسجد الأعظم، حيث كان يوجد بهذه المكتبة زيادة على الكتب والمخطوطات نسخا من القرآن الكريم، ونسخة من صحيح البخاري، ونسخة من كتاب الشّفاء لأبي الفضل القاضي عياض، نسخها الملك أبو زيّان بنفسه وحبسها كلاهما على المكتبة العامّة بالمسجد الأعظم بتلمسان[7].

ج- مكتبة مدرسة أولاد الإمام:يبدو أنّ هذه المكتبة تمّ إنشاؤها داخل مسجد أولاد الإمام عندما

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص285.

[2]– محمد الطمار، تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص211.

[3]– الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م، ج2، ص66.

[4]– عبد الحميد حاجيات، أبو حمو الثاني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص183.

[5]– محمد مشنان، المؤسسات العلمية الثقافية في تلمسان الزيانية، مجلة رسالة المسجد، العدد2، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2003م ص59.

[6]– الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج2، ص66.

[7]– محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص211.

تمّ تشييد المسجد، وكان لها شهرة كبيرة وسمعة طيّبة كما أنّ للمسجد أهميّة لدى العلماء وطلبة العلم الّذين يقصدونها رغم غياب المصادر التّاريخيّة عمّن شيدها وتاريخ بنائها، وقد أورد لنا الإمام المقرّي الحفيد في رحلته الصّورة الّتي آلت إليها هذه المدرسة عند زيارته لها سنة (1010هـ/ 1601م) حيث قال:"فسرحنا النّواظر في محاسن المدرسة المذكورة و طفنا على رسومها الباقية حتّى وصلنا خزانة الكتب المشهورة فألفيناها بباب خاوية على عروشها وقد ملئت بالزّبل"وقد اشمأز الحضور لرؤية ذلك المشهد فقال أحدهم وهو الفقيه علي بن محمد بن علي أبهلول :خزانة للكتب مملوءة بالزّبل في مدرسة أولاد الإمام[1].

د- مكتبة الجامع العتيق بندرومة:هناك لوحة من الخشب الأزرق كانت جزء من المنبر جامع ندرومة وهي لوحة على هيئة عقد نصف دائري ارتفاعها 01 متر وعرضها 0,72 متر، وتتألف من اثني عشر سطراً، ويؤكد الكثير من المؤرخين أنّ المؤسس الأوّل للجامع هو يوسف بن تاشفين حوالي 474هـ/1081م، وهي الفترة الّتي حكم فيها على المغرب الأوسط، وتوجد المكتبة في المسجد الذي يقع بالحي الشعبي المسمى التربيعة.ومن أهمّ العناوين الّتي كانت بمكتبة ذلك المسجد نذكر منها:"العقد الفريد"لابن عبد ربه و"ترتيب الحوالك في مذهب الإمام مالك"[2].

وعليه نتأكّد أنّ تلمسان شهدت حياة علميّة راقية ومزدهرة بفضل مكتباتها الّتي كانت تعج بالعلماء وطلبة العلم والكتب النّفيسة القيّمة وأصبحت أُمًّا للعلم والعلوم وقطبا أكبر في بلاد المغرب الإسلامي، والّتي لعبت دورا هامّا في الحركة التّعليميّة خلال العهد العثماني في فترة الدّايات، إذ أنّ مكتبات تلمسان هدمت وخربت عند الاحتلال الفرنسيّ للجزائر.

7. 2- مكتبات معسكر:

عرفت حاضرة معسكر هي الأخرى مكتبات داخل المؤسّسات التّعليميّة المساجد والمدارس والزّوايا خلال العهد العثماني لتمكين الطلبة والاطلاع على الكتب، وتميّزت بنوعيها العامّ والخاصّ: فالمكتبات العامّة هي تلك المكتبات الملحقة بالمساجد والزّوايا والمدارس الّتي كانت مفتوحة للطلبة خصوصا ومختلف القرّاء عموما[3]، وهي تضمّ مختلف المخطوطات والكتب في شتّى الفنون، يلجأ

[1]- أبو العباس أحمد المقري، المصدر السابق، ص140.

[2]- بلحاج صديقي، المرجع السابق، ص33.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص298.

إليها الطّلبة والأساتذة من جميع النّواحي للمطالعة[1]، مثل المكتبة العامّة بتلمسان،ومكتبة المدرسة المحمّديّة الّتي أسّسها الباي محمد الكبير في معسكر، ومكتبة زاوية القيطنة التي تحوي كتبا كبيرة .أما المكتبات الخاصّة فهي تلك المكتبات الخاصة بالأفراد والعائلات والأسر، إذ كان لأبي راس النّاصري مكتبة كبيرة حبسها عليه أحد بايات وهران وسمّاها مكتبة"المذاهب الأربعة"وأيضا ذكر الورتلاني أنه كان لوالده خزانة كتب عظيمة[2]، ومن بين مكتبات معسكر ما يلي:

أ- مكتبة الباي محمد الكبير:وهي مكتبة ضخمة وكبيرة ومتنوّعة[3]، تحوي على مختارات من شتّى المخطوطات والكتابات، فقد كان الباي محمّد الكبير لا يكتف بمخطوطة واحدة في خزانته، بل يأمر بنسخ عدّة مخطوطات وخاصّة النّادرة منها لتكون في متناول جميع المثقفين[4]، وكان ينفق عليها الأموال الكبيرة في شراء واقتناء المخطوطات النّفيسة ليضعها في خزانته أو يحبسها على طلاّب العلم والمعرفة، وكان يحبّ العلماء ويعتني بهم، كما كان هو أيضا مولعا بالمطالعة وقت فراغه وكان فقيها أديبا مطّلعا على تاريخ العرب وأيّامهم[5]، كما كانت معرفته بالطبّ كبيرة وكان يأمر بإحضار الأدوية إلى قصره لتوزع على الفقراء والمحتاجين مجانا وتحت إشرافه[6].إضافة إلى ذلك كان الباي محمّد الكبير يشجع عمليّة النّسخ والتّأليف، كما كان يقترح مواضيع التّأليف بنفسه ويكلّف المؤلّفين بذلك[7]، وهذا سعيا منه لتحسين وتطوير الكتابة التّاريخيّة في بايلك الغرب، ومن بين الكتب الّتي حظيت بنصيب وافر من التّأليف والنّسخ في أيام الباي محمّد الكبير كتاب كلام شارح السلوانيّة في الباز[8]، وكتاب كلام صاحب التّذكرة وكتاب الأغاني للأصفهاني، وكتاب قاموس

---

[1]– محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص60.

[2]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص.ص297- 298.

[3]– أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير"باي الغرب الجزائري"إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم النشر، الجزائر، 1968م، ص26.

[4]– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013م، ص155.

[5]– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المصدر نفسه، ص155.

[6]– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المصدر نفسه، ص156.

[7]– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المصدر نفسه، ص.ص155، 156.

[8]– القصيدة السلوانية "روضة السلوان"لإبراهيم الفجيجي، والذي شرحها هو أبو القاسم الفجيجي.ينظر أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص292.

الطّب،وكتاب عقود المحاسن وشرح العقيقة والثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني لابن سحنون الرّاشدي، وكتاب الرّحلة القمريّة لابن زرفة الدّحاوي[1]، وكتاب المنهل الروّي والمنهج السوّي في الطّب النّبويّ للشيخ عبد اللّطيف[2].إذًا لقد ساهم الباي محمّد الكبير في عمليّة النّسخ والتّأليف الّتي تزودت بها المكتبة الّتي شيّدها وجلب لها الكتب بجميع مجالاتها، حيث عرفت مكتبته مسارا علميّا حافلا بالحركة التّعليميّة لعقود من الأزمنة.

ب- مكتبة أبو راس النّاصري:تعدّ مكتبة الشّيخ أبو راس النّاصري المعروفة باسم"مكتبة المذاهب الأربعة"أو "بيت المذاهب الأربعة"[3]، نظرا لاحتوائها عل مؤلّفات الأئمة الأربعة، والّتي تعتبر من بين المكتبات الخاصّة ذات الأهميّة البالغة في معسكر، فهي المكتبة الّتي حبسها الباي مصطفى الأعجمي للشيخ[4]، وتضمّ المكتبة أنفس الذّخائر والمخطوطات النّادرة وحتّى المؤلّفات الّتي ألّفها أبو أبو راس النّاصري نفسه، والّتي لم تطبع إلى يوم النّاس هذا[5]، ذكرها أبو راس النّاصري مدحا في كتابه "فتح الإله"بقوله:"...بما مدحت به مصريتنا الّتي بيت المذاهب الأربع"ولقد أنشد في ذلك قائلا:

فـــلله قـــبة يـــعـز نـــظـــيـرها وبهوها قد احتار المباهي مباهيها
يكاد يغطي الجو من طول قدها ترى الحسن مكتسيا واعـــيا
تـــقـول لـــمـن يـأتي لها منزها تأمل جمالي تستفيد شرح حاليا
بـنـيت لخدمة الـعـلـوم وبـــثـها لمن يروح نحوي ومن هو غـاديا
يـبـثه مـولاي"أبـو راس"الـرضا فـيـعـطـرني بـه ويـعـطـر نـــاديا[6].

---

[1]– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص155.

[2]– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المصدر نفسه، ص156.

[3]– محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص74.والآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ج1، ص328.

[4]– محمد أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص75.ومحمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013م، ص294.

[5]– بن عمر حمدادو، واقع الحياة الثقافية والفكرية أواخر العهد العثماني ببايلك الغرب، قسم التاريخ وعلم الآثار، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، والجغرافيا، العدد09، إصدار مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية، بوزريعة، الجزائر، 2015م، ص32.

[6]– محمد أبو راس النّاصري، المصدر السابق، ص74.

يتضح من خلال هذه الأبيات أنّها كانت تشعّ بالعلم وحافلة بشتّى المؤلّفات والكتب في مختلف العلوم والفنون، خاصّة وأنّ صاحبها كان من بين أشهر المؤلّفين في تاريخ الجزائر العثمانيّة، بعد عبد الرّحمن الأخضري وأحمد المقري وعبد الكريم الفكون وابن مريم وأحمد البوني وابن حمادوش والزجّاي وقدورة[1].وحسب قول أحد الباحثين أنّ هذه المكتبة كان يقصدها علماء عدّة من فاس ومكناس وتونس وليبيا...إلخ[2].والّذي يظهر أنّ الشّيخ أبي راس النّاصري كان مهتما كثيرا بصيانة المكتبة وتزيينها، فقد ورد في ذلك أنّه لما أراد ترميمها وتجديد تبيّضها بعث للباي محمّد بن عثمان الملقّب بالرّقيق يطلب منه الإعانة،فبعث له بمائة ريال[3].نالت مكتبة أبي راس النّاصري شهرة كبيرة في الجزائر العثمانيّة وخارجها وأصبحت مفخرة لحاضرة معسكر ومقصدا للعلم والعلماء.

ج- مكتبة معهد القيطنة[4]:وتسمّى أيضا بمكتبة الشّيخ محي الدّين،وكانت زاوية القيطنة تحوي على كتب كثيرة أيضا، وهي الكتب الّتي تثقف منها الأمير عبد القادر[5]، ومن البديهي أن تمتلك هذه العائلة مكتبة متوارثة وذلك لما عرفت به من تقاليد عريقة تقوم على تقدير العلم والعلماء، فقد بلغ عدد الكتب الّتي كان يمتلكها الأمير عبد القادر حوالي 5000 كتاب ومخطوط[6].

ونعتقد أنّه هناك صلة كبيرة بين هذه المكتبة والكتب الّتي وجدت بمعسكر أثناء احتلالها سنة 1835م، فقد أشار أدريان بيربروجر الّذي رافق الحملة الفرنسيّة على معسكر لكثرة المخطوطات والكتب المبعثرة في المدينة والّتي كانت بحالة سيئة، كما أخبر أنّه جمع عددا كبيرا منها ونقلها إلى مكتبة العاصمة، حيث وضعها في صندوق وحملها على ظهر جمل، وذلك للاستفادة منها خاصّة وأنّه عرف بتقصيه لأخبار المكتبات والمخطوطات النّادرة.

ومن بين الكتب الّتي عثر عليها كتاب في الأدب الكلاسيكي وقاموس عربي وكتب متنوعة في تفسير القضاء الإسلاميّ وشروح وحواشي في الفقه وكتب أخرى متنوعة، وأيضا عدة شروح في

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص295.

[2]– بن عمر حمدادو، المجلة السابقة، ص32.

[3]– محمد أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص75.ومحمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص303.

[4]– كلمة مشتقة من القطن، وهي قرية صغيرة تبعد حوالي 28 كم عن مدينة معسكر(وهي ضمن ولاية معسكر).ينظر:الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، الجزائر، 1994م، ص28.

[5]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص297.

[6]– أحمد بن داود، المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر من خلال التعليم، المجلة التاريخية المغاربية، العدد157، منشورات مؤسسة التميمي للبحث للبحث والمعلومات، تونس، 2015م، ص78.

البلاغة العربية وكتب حول التّاريخ وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وكتب في الشّريعة الإسلاميّة وكذلك كتب خاصّة بأعمال الأمير عبد القادر، هذا بالإضافة إلى وجود عدّة مصاحف للقرآن الكريم[1].والشّيء الملاحظ أن مكتبة زاوية القيطنة كانت ثريّة بالكتب والمؤلفات العلميّة خاصّة الكتب الدّينيّة ممّا سهّل في عمليّة البحث والمطالعة وتلقي العلوم خلال الحكم العثماني بالجزائر.

د- مكتبة أسرة المشرفي:تعدّ مكتبة المشارف من بين المكتبات الهامّة في حاضرة معسكر(ولاية معسكر)، وهي تنتسب للشّيخ الفقيه عبد القادر المشرفي إمام الرّاشديّة من أبرز علماء عصره لتضلعه في علمي الأصول والفروع ومواظبته على بثّ العلوم بزاويته بالكرط[2]، وقد قال أبو حامد المشرفي مادحا ومثنيّا على علم ومكتبة عبد القادر المشرفي بقوله: "فقد كان متضلّعا ـ رضي الله عنه ـ في علم الأصول والفروع بحر لا يجاريه، وقد شغله عن التّأليف قيامه بوظيفة العبادة، ولو اجتمعت فتاويه الفرعيّة ودوّنت لملئت الدّيوان وعندي منها القدر الكثير، ولم أتفرّغ بجمعه وما تفرق في خزانته الّتي كانت مستودعة عند الصّقليين لا يعد ولا يحصى"[3].وعليه تعتبر مكتبة الشّيخ عبد القادر المشرفي من أغنى المكتبات وما تحويه من مؤلّفات علميّة سواء الدّينيّة والعقليّة الّتي تزوّد بها طلاب العلم خلال مراحلهم التّعليميّة.

هـ- مكتبة الجامع الأعظم:هي المكتبة الّتي أسّسها الباي محمّد الكبير بجوار الجامع الأعظم وتعرف بالمكتبة المحمّدية، وهي مجهزة بكلّ الوسائل التّعليميّة والتّثقيفيّة،لاسيما قاعات المطالعة الّتي قصدها الطّلبة والقرّاء وذلك لقول ابن سحنون الرّاشدي:"وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت الّتي بناها لأجلها خارج بعض زواياه"[4]، وعليه تعدّ مكتبة الجامع الأعظم بمعسكر إرثا حضاريّا ورافدا علميّا باحتوائها المؤلّفات والمصنّفات العلميّة والتّعليميّة وهي أحد عوامل نجاح وازدهار الحياة الثّقافيّة.

---

[1]- سعدية رقاد، المرجع السابق، ص.ص145، 146.

[2]- الكرط:بلدة تقع جنوب مدينة معسكر على بعد حوالي 6كلم، وهي قرية تقع على سفح جبل شقران.ينظر:عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر المشرفي حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012م، ص63.

[3]- أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، ضمن كتاب الرحلة الحبيبة الوهرانية لذكر اللطائف العرفانية لأحمد بن محمد العياشي سكيرج، دراسة وتحقيق بن عمر حمدادو والعربي بوعمامة، دار قرطبة، تلمسان، الجزائر، 2011م، ص292.

[4]- أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص136.

شهدت عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها ومن جمالها والعناية بها،فقد اعترف"أدريان بيربروجر"الذي رافق الحملة الفرنسية على مع معسكر وجمع المخطوطات منها[1].

تعتبر المكتبات العمود الفقري للمؤسّسات التّعليميّة ونواتها الحقيقية لأداء وظيفتها العلميّة لرقي الشّعوب والأمم، وظهورها بتلمسان ومعسكر خلال الفترة العثمانيّة دليل على حبهم للعلم ومساهمتهم لانتشاره وتعميمه، وحتمية التّطور الفكريّ.

8. محتويات المكتبات ومصيرها:

8. 1– محتويات المكتبات:

كانت معظم الكتب والمخطوطات تلك المكتبات بنوعيها في العهد العثماني، لا تخرج عن نطاق العلوم الإسلاميّة، حيث كانت مواضعها حول التّفاسير والأحاديث النّبوية وشروحها وكتب الفقه والأصول والتّوحيد،لكن هذا لا يمنع من وجود كتب حول العلوم اللّغوية والعقليّة، مثل كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والطب، فتقارير العلماء الفرنسيّين مباشرة بعد احتلال الجزائر 1830م عن مكتبات الجزائر بيّنت بأنّها كانت غنيّة بمختلف أنواع المعارف والفنون فالعديد من الكتب جاءت عن طريق الوقف والواقف عادة ينصّ على أنّ الكتاب موقف في سبيل الله على طلبة الجامع (المسجد) أو الزّاوية أو المدرسة الّتي يوجد فيها، حيث ذكرت المراجع عددا من الأوقاف المتعلّقة بالمخطوطات والكتب بحاضرتي تلمسان ومعسكر، نذكر منها[2]:

1– نسختان من صحيح البخاري.

2– شرح الشبرخيتي على مختصر خليل في أربعة أجزاء.

3– شرح الخرشي على مختصر خليل الجزء الأول منه.

4– تنبيه الأنام في جزئين.

5– نسخة من سيرة السّنوسي للملالي وهو"المواهب القدسيّة في المناقب السنوسيّة".

6– نسخة من الشيخ العروسي في سفرين.

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص286.

[2]– بلحاج صديقي، المرجع السابق، ص42.

كما وجدنا أن السيدة فاطمة بنت ابن جبور قد أوقفت على مسجد الغريبة بتلمسان أيضا:

- نسخة من تأليف الجوزي.

- نسخة من تأليف السّيوطي.

وكلاهما في أحوال الآخرة، كما أن الباي محمّد الكبير قد أوقف نسخا عديدة على مكتبات بايلك الغرب خلال الحكم العثماني بالجزائر[1]، وهو دليل على انتعاش المكتبات وقفزة نوعية في مسارها.

8. 2- مصير المكتبات:

عموما كان مصير مكتبات وخزائن الكتب غير آمن، فقد ضاعت أو أتلفت العديد منها خلال الحروب والثّورات وما يرافقها من فوضى ونهب وتهريب وإهمال، ومن الحروب الّتي وقعت كحرب بين الجزائريين والإسبان، وكثورات من حين إلى آخر داخلية قام بها الجزائريين ضد العثمانيين، ومن الثّورات ثورة الكراغلة وثورة تلمسان في القرن الحادي عشر، وكذلك ثورتا تلمسان سنة 1035م و1037م، ومن تلك الثّورات أيضا ثورة درقاوة، أو ثورة أتباع الشيخ محمد العربي الدرقاوي سنة 1219م، فقد غطت مناطق واسعة وهددت الوجود العثماني فيها بقوة، ودارت معارك كثيرة، مما أدى إلى بعثرة الكتب وسوء التّصرف بالخزانات والمكتبات[2].

9. خاتمة:

حيث يتضح فيما سبق من خلال دراستنا الّتي قمنا بها إعطاء نظرة خاصّة حول خزائن الكتب في تلمسان ومعسكر فوجدنا أنّ المكتبات هي مؤسّسة من المؤسّسات التّعليميّة التّثقيفيّة والّتي كانت جامعة للثروات الفكريّة الغنيّة بجميع أنواع العلوم والفنون من فقه وأصول، وعقيدة، وتوحيد، وتفسير، وتجويد، وحديث، وفلسفة، وطب، وفلك، ومنطق، وحساب، وتاريخ، وجغرافية، ورحلات، وسير، وتراجم، وآداب، وتصوف، ووثائق متنوعة من كتب ومخطوطات.

وقد انتشرت المكتبات في الحضارة العربية الإسلاميّة والّتي عني بها المسلمون خاصّة في الجزائر العثمانيّة في بايلك الغرب خلال عهد الدّايات(1671-1830م)، فانتشرت انتشارا واسعا في المؤسّسات العلميّة من مساجد ومدارس وزوايا.

ولعلّ أهم المصادر الأساسيّة المغذّية للمكتبات التي زخرت بها كشراء الكتب أو وقفها أو جلبها

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص299.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص.ص209-221.

عن طريق الرحلات العلمية ومواكب الحج، ويعتبر نسخ الكتب وتأليفها كانت من أبرز الوسائل لتدعيم خزائن الكتب.كما أن المكتبات تخضع لنظام خاص بها خلال فترة البحث أو المطالعة، من خازن الكتب والمناول، وأمين المكتبة.

فلقد قام الكثير من العلماء و السّلاطين سواء في الفترة الزيانيّة أو العثمانيّة بتشييد الكثير من المكتبات سواء الخاصّة أو العامّة كالمكتبة الّتي أنشأها أبو حمّو موسى الثّاني سنة 760هـ/1359م بالجامع الأعظم بتلمسان، والمكتبة الّتي أنشأها الباي محمّد الكبير وغيرها من المكتبات، الّتي كان لها الدّور في بعث الحركة العلميّة والثّقافيّة، الّتي أدّت دورا تاريخيّا في نشر والحفاظ على الثّقافة العربيّة والإسلاميّة، حيث شهدت تلمسان ومعسكر انتعاشا فكريّا نافست نظيراتها من حواضر المشرق والمغرب والأندلس، كثر الإقبال على التّعليم بما تزخر به المكتبات من معارف وآداب حيث أنارت العقول حقا.

كما تعرضت محتويات خزائن الكتب لبعض من النكبات والإهمال ممّا أدى إلى نقص إلى حد ما، ورغم هذا بقيت المكتبات تؤدي رسالتها التّنويريّة التّعليميّة.

حافظت المكتبات على طابعها التّقليدي ممّا جعل الأجانب ينبهرون في انعدام الأميّة في أواخر العهد العثماني خلال عهد الدّايات، فكانت المعيار الوحيد في التّقدم الحضاريّ والعلميّ للمجتمع الجزائري.

10. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج1، 1998م.

2أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، ضمن كتاب الرحلة الحبيبة الوهرانية لذكر اللطائف العرفانية لأحمد بن محمد العياشي سكيرج، دراسة وتحقيق بن عمر حمدادو والعربي بوعمامة، دار قرطبة، تلمسان، الجزائر، 2011م.

3 أبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع، شرح حدود بن عرفة الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام بن عرفة الوافية، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.

4 أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي

البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013م.
5أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير"باي الغرب الجزائري"إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم النشر، الجزائر، 1968م.
6 الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، ج1، 2009م.
7 الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، الجزائر، 1994م.
8 بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن (4هـ/10م)، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
9 الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ج2، 2011م.
10 حامد شافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998م.
11 راغب السرجاني، ماذا قدم المسلمون للعالم إسهامات المسلمون في الحضارة الإسلامية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط2، 2009م.
12 السيد النشار، تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993م.
13 شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004م.
14 طرفة عبد العزيز العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنيين (7-8هـ)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996م.
15 عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر المشرفي حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012م.
16 عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
17 عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ج2، 2002م.
18 عبد الله الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن 20م، دار العلم للملايين،

بيروت، ط1، 1984م.

19 محمد أبو راس النّاصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار(1165-1238هـ/1755-1823م) دراسة وتحقيق محمّد بوركبة، أطروحة الدكتوراه إشراف عبد المجيد بن نعمية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، السنة الجامعية 2007-2008م.

20 محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.

21 محمد الطمار، تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

22 محمد بن إبراهيم بن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم، تحقيق عبد السلام عمر علي، دار الآثار للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2005م.

23 محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

24 محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.

25 محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013م.

26 محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1987م.

27 محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام:نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.

28 مصطفى عليّان ربحي، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، دار الصفا للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1999م.

29 مصطفى عليّان ربحي وأمين النجداوي، مقدمة في علم المكتبات والمعلومات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1999م.

30 يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 2004م.

31 يحي محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية استبطان للموروث الثقافي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط2، 1996م.

الأطروحات:

32 بلحاج صديقي، المكتبات الجزائرية في القطاع الوهراني خلال الفترة 1830-1954م، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران،رسالة ماجستير إشراف شيخ بوشيخي، السنة الجامعية 2011-2012م.

33 زينب رزيوي، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين7هـ و9هـ/13م و15م، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، أطروحة الدكتوراه إشراف خالد بلعربي، السنة الجامعية 2015-2016م.

المقالات:

34 أحمد بن داود، المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر من خلال التعليم، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 157، منشورات مؤسسة التميمي للبحث والمعلومات، تونس، 2015م.

35 أنور محمود الزناتي، الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية ودوره في النهضة العلمية –الأندلس نموذجا-، دورية كان التاريخية، مجلة رقمية إلكترونية، السنة5، العدد16، 2012م.

36 بن عمر حمدادو، واقع الحياة الثقافية والفكرية أواخر العهد العثماني ببايلك الغرب، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، العدد09، إصدار مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية، بوزريعة، الجزائر، 2015م.

37 بوبة مجاني، المدارس الحفصية:نظامها ومواردها، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، العدد12، 1999م.

38 عبد الغني عبد الله يسري، من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية:المكتبات الخاصة، دورية كان التاريخية، مجلة إلكترونية، العدد16، 2012م.

39 محمد مشنان، المؤسسات العلمية الثقافية في تلمسان الزيانية، مجلة رسالة المسجد، العدد2، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2003م.

40 محمد مولاي، اللغة العربية وعلومها في بلاد السودان الغربي من (ق10هـ-12هـ/16م-18م)، المجلة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، المجلد17، العدد 2، جوان2021م.

41 الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، العدد89-90، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1981م.